المبحث الأول

انحلال وسقوط الإمبراطورية الخزرية

أولًا: الحرب الروسية الخزرية

بدأت بوادر انهيار الإمبراطورية الخزرية في المئة عام الأخيرة من حياتها، وتمثلت في فقدان الإمبراطورية أجزاء من أطرافها، إذ حدث في عام ٢٨٢هـ أن احتل الروس مدينة (كييف)؛ مما أدى إلى خروج الإمارات الغربية عن سيطرة الخزر عدا أجزاء من القرم، وصار سكان هذه الإمارات يرفضون دفع الأتوات إلى الخزر بمن فيهم القبائل السلافية (الصقلبية) التي تقطن حوض التدبير[1].

وهناك نقطة مهمة نود الإشارة إليها، وهي أن قوة عسكرية من المسلمين كانت ضمن جيوش الخزر، وكانت هذه القوة بمثابة قوة ضاربة يستعين بها الخزر على تلافي الهجومات ومعالجتها حال تعرض أركان الإمراطورية لاعتداء خارجي، وكان ما يقوم به هؤلاء المسلمون مقابلًا لإحداث علاقة طيبة يقيمها الخزر مع الأقاليم الجاورة لهم، والتي تمثل المناطق الشرقية الممتدة

(١) كسيتلر، مصدر سبق ذكره، ص ١١٣ – ١١٤.

إلى أدنى الفولغا والأقاليم المطلة على بحر قزوين، والتي كانت تمثل أطراف الخلافة الإسلامية، وهي: (أذربيجان، جيلان، وشيروان، وطبارستان، وجورجان)، وكان الروس يعتدون على هذه الأقاليم، مما يسببون إحراجًا لحكام الخزر تدفعهم غالبًا لخوض معارك دامية، فضلًا عن الأزمات السياسية التي تحدث بين الطرفين جراء ذلك، وتتمثل ممارسات الروس بالسلب والنهب وأسر عدد من المسلمين، ويصف لنا المسعودي في مؤلفه (مروج الذهب) كيف كان الروس يصلون بسفنهم إلى مضائق بحر الخزر، وكيف كانوا يتجاوزون حدود الإذن الذي يحصلون عليه من الخزر للمرور بتجارتهم مقابل العشرة بالمئة التي يدفعونها كرسوم مقررة، وقد أشار المسعودي إلى سرايا قراصنة هاجمت أقاليم جيلان وجورجان وطبرستان وأباسكون، وسفكوا دماء كثيرة، واستباحوا النساء، وأخذوا الغنائم الكثيرة بعد أن خربوا البلاد وأشعلوا الحرائق في كل الجهات، وبلغ بهم الأمر أنهم استباحوا مدينة أردبيل ونهبوها وقتلوا كثيرًا من أهلها، إلا أن أهلها جمعوا إمكانياتهم ومقاتليهم وحاولوا طردهم، لكن معارك كبيرة استمرت بين الطرفين أدت إلى قتل وغرق آلاف المسلمين[1].

وتقول المصادر التاريخية إن هناك تواطؤًا كان يقدمه ملك الخزر إلى الروس بخصوص تجاوزاتهم ضد الأقاليم

(١) المسعودي، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٢.

الإسلامية، وهذا ما يذكره المسعودي بأن المسلمين الذين كانوا يشكلون قوة ضاربة داخل الإمبراطورية الخزرية أرادوا أن يثأروا لما فعله الروس بإخوانهم المسلمين، فطلبوا من ملك الخزر أن يصرح لهم بذلك فلم يستطع ردهم، إلا أنه بعث إلى الروس يخبرهم بما عزم عليه المسلمون، وقتل منهم أكثر من ثلاثين ألفًا، وهرب الباقون، إلا أنهم لم ينجوا من رجال البورتا والبلغاء فقتلوا جميعهم ولم ينج أحد، وكانت هذه سنة ٩١٢م[١].

ويذكر ابن فضلان الحادثة نفسها مشيرًا إلى الخيانة والغدر الذي أبداه ملك الخزر من خلال شراكته السلبية مع القوة الإسلامية التي ساعدته مرات عديدة، في الخروج من مآزق كانت متمثلة بصد هجمات تعجز عنها جيوشه لولا مساعدة المسلمين؛ لاسيما التي تأتي من الأقاليم المجاورة للخزر، ولم تتكرر حادثة عام ٩١٢م إلى أن قام الروس في عام ٩٤٣م بغارتهم على بحر قزوين وبأسطول أكبر؛ إذ استطاعوا من خلالها أن يحتفظوا لهم بقاعدة عسكرية استقرتبها قواتهم مدة سنة كاملة، إلا أن الأذربيجانيين طردوهم من دون أن يكون للخزر دورٌ في ذلك سوى أعمال السلب والنهب التي قاموا بها عقب انكسار الروس[٢].

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢١٤.

(٢) ابن فضلان، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٧.

ويبدو أن ممارسات الروس وتعرضاتهم المستمرة ضد الخزر ومن عُدّ من حلفائهم قد أصَّلت عِداءً مستمرًا دفع الطرفين إلى دخول حروب وحملات عسكرية مستمرة كان في قمتها الحملة التي قادها الأمير (سفياتوسلاف)[1] سنة ٩٦٥م، إذ تروي الحولية الروسية: «إن سفياتوسلاف تحرك نحو الفولغا والأودكا، وعلم الخزر بقدومه فخرجوا إليه بقيادة الخاقان نفسه، والتقى الجيشان وهزم الخزر، واحتل سفياتوسلاف مدينة (بييلافيزا) التي تسمى القلعة البيضاء، وهو الاسم السلافي لقلعة (ساركل) الشهيرة على نهر الدون، وتعد هذه الحادثة بدايةً لانهيار الخزر، لكن الخزر بقي لديهم السيطرة على الطرق المؤدية إلى بحر قزوين[2].

ويقول توينبي إن الروس قد نجحوا في القضاء على إمبراطورية السهوب الخزرية، ولكن كان الإقليم الخزري الوحيد الذي كسبوه هو إقليم (تموتوركان) الواقع في شبه جزيرة تامان (المواجهة للقرم)، وكان هذا الكسب سريع الزوال، والواقع أن

---

(١) سفيا توسلاف أمير كييف وابن أجور القائد المشهور لدى الروس. كان مشهورًا بخفة حركته، ويذكر المؤرخون أنه قاد حملات كبيرة لبلاده، وأنه قضى معظم أيام حكمه بالحروب، وكان من صفاته التقشف في أثناء حملاته، فهو لا يصحب معه العربات أو الخيام أو أواني الطبخ، وكان يأكل مما يصطاد أو يحصل عليه في أثناء غزوه، ويروى أنه كان لا يباغت أعداءه بل يرسل إليهم «إني قادم إليكم». راجع: كيستلر، مصدر سبق ذكره، ص ١١٧ – ١١٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ١١٩.

الروس لم يحققوا فتوحات دائمة لصالح روسيا قبل منتصف القرن السادس عشر حين شملت فتوحاتهم نهر الفولغا حتى مصبه في بحر قزوين[1].

وتتغير سياسة المنطقة تغيرًا جذريًّا عندما تسلم (فلادمير) الولاية عقب مقتل أبيه على يد البيزنطيين واستيلائه على مدينة (خرسون) التي كانت فيما قبل موطن صراع دائم بين الخزر والبيزنطيين، وبعد هذا الانتصار اتصل فلادمير مع إمبراطور بيزنطة قائلاً له: «لقد استوليت على مدينتكم الرائعة، وعلمت أن لكم شقيقة لم تتزوج بعد، فإذا لم تزوجوها لي فإنني سوف أتصرف بمدينتكم التي أنتم فيها كما تصرفت بمدينة خرسون»[2]. ورد الإمبراطور عليه قائلًا: «إن عُمِّدتَ فستكون لك زوجة، وسوف ترث مملكة الرب، وسوف تكون لنا زميلًا في الدين».

وهكذا بدأ التغيير الكامل في روسيا نحو المسيحية بعد زواج فلادمير من الأميرة البيزنطية (آنا)، بل كان هذا انتصارًا مهمًّا لبيزنطة، إذ لم تكن المسيحية الدين الرسمي للحكام الروس فقط بل للشعب الروسي أيضًا، وصارت الكنيسة

(١) توينبي نقلًا عن كيستلر، مصدر سبق ذكره، ص ١١٩.

(٢) عبد اللطيف، محمد عبدالرحمن، وعبدالله، ليس لبني إسرائيل، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧١، ص ٧٧.

الروسيـة منذ عـام ١٠٣٧م تابعة لنفوذ بطريـرك بيزنطة، كما أن هـذا الحـدث قد ألغـى التحالـف البيزنطي الخـزري وأحل مكانـه تحالفًا بيزنطيًّا روسيًّا قـام سنة ١٠١٦م بهجوم مشترك ضـد الخزر، وبعد معارك دامية بين الطرفين كان النصر للقوى المتحالفة[١]، لكنهـا وإن سقطت بأيدي جيوشها مدن كبيرة من مدن الخزر إلا أنها لم تكن النهاية، إذ يروي المؤرخون أن الخزر في عام ١٠٣٠م استطاعوا أن يهزموا جيشًا غازيًا قتلوا منه أكثر مـن عشرة آلاف مقاتل، كما أن الخزر استطاعوا فك أسير لهم في (تموتـوراكان) من أيدي الروس فضلًا عن غارات لهم على مدن غرب كييف[٢].

أمـا بنيامـين فريدمـان فإنه يتحـدث عـن دور روسيا في انحـلال وسقوط مملكة الخزر فيقـول: «منذ قيامها سنة ٨٢٠م وإمـارة الروس البالغة الصغر منهمكـة باستمرار في حروب مع معظـم جاراتهـا القويـة وعلى جميـع حدودها علـى الرغم من ضآلـة عدد السـكان ومحدودية الموارد في إمـارة الروس التي لا يمكـن أن تشجعها على خوض أي حـرب. وفي حروبها المتواصلة للاستيـلاء على مزيـدٍ مـن الأراضـي، كان صدامهـا الرئيس مـع جارتهـا الجنوبية الأكـبر والغنية لكـن المنقسمـة التي تبلغ

(١) المصدر نفسه، ص ٧٧.

(٢) ابن الأثير، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥١، ودنلوب، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣٣.

مساحتها (٨٠٠) ألف ميل مربع، وأعني بها مملكة الخزر، التي عُـدت أعظم وأقوى دولة في أوروبا حتى القرن العاشر الميلادي، وقـد هزمت إمارة الروس هذه المملكة من خلال غارات وحروب مواصلة قاتلها دون شفقة؛ من أجل الاستيلاء على أراضيها.

لقـد استمرت هذه العلاقـة قرونًا عدة مـن دون انقطاع، ومـن ثمَّ وخـلال ثلاثة قرون قضـت إمارة الروس على مملكة الخزر مستولية على هذه المساحات الشاسعة، ليغيب كيان مملكة الخـزر السياسي والعسكري من أجواء أوروبا بعد أن كانت دولة ذات سيادة مستقلة[1].

ويصـف لنـا عبدالرحمـن شاكـر في كتابه (دولـة الخزر الجديـدة) الأدوار المهمـة التـي أداها الروس في انهيار الخزر فيقـول: «والـذي قضـى علـى دولـة الخـزر هـم أمـراء كييف الفرغانيون الذين جاؤوا من فرغانة غرب سيبيريا، وهو الأصل نفسـه الذي جاء منه الخزر، وأولهـم كان (روريك) الذي أقام بين قبائل الروس السلافيه في عام ٨٥٥م، وكانت تلك هي بداية الدولة الروسية. وفي عام ٩٦٥م استولى أحد خلفائه وهو الأمير (سفياتوسـلاف) على قلعة (سـاركل) الخزرية في عام ٩٦٩م، واستولـى على (إتـل) عاصمة الخـزر وعلى (سمينـدر) ثانية

(١) فريدمان، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧ – ٣٨.

مدنهـم الكبرى، بعد ذلك انسحبت دولة الخزر إلى شبه جزيرة القرم، ودامت فيهـا (٥٠) عامًا حتى استطاع (ستيلاف) أمير كييـف أن يقضي عليهـا بالتحالف مع بيزنطـة في عام ١٠١٦م، وقبـل ذلك بأعـوام قليلـة كان سلفـه (فلاديمير) «قـد اعتنق الديانة المسيحية وأصبح لكييـف، (وللرس) من رعاياها مكانة أدبيـة، خاصـة إذ يعدُّهم رعـاة المسيحية ولاسيمـا بعد سقوط بيزنطة في أيدي العثمانيين»[1].

ويقـول (جون بيتـي) في كتابه الصهيونيـة لعبتها أمريكا: «لقـد هبط من التـلال المنخفضة غـرب موسكـو جماعات من المحاربين استوطنوا البلاد، وعرفت بلادهم (بروسيا)، وعرفت ديانتهم بالمسيحية، وطائفتهم (بالأرذوكسية).

ومـع أن لغتهـم كانت تختلـف عن اللغـة السلافيـة إلا أن أصلهـا كان واحـدًا وعباراتهـا في كثير مـن المواضيـع غالبًا ما تكـون متشابهـة، واندمـج (الروس) في الأهلـين السلافيـين، ونظمـوا البلاد تنظيمًـا دوليًّا، وجاهدوا لكـي يوطدوا حدودهم ويوحدوها، وكانت تتصل بحدود الخزر على (كييف)، فجعلوها مركزًا تجاريًّا خطيرًا ومدينة مرموقة تعيش فيها طبقة مستترة مثقفـة، واشتبك السلافيون ولاسيما أولئك الذين كانوا يغيشون

(١) شاكر، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥ – ٣٦.

في المنطقة المعروفة (بأوكرانيا) بحرب طويلة دائمة مع الخزر، وتمكنوا في سنة ١٠١٦م من سحق دولة الخزر وانتزاع مناطق شاسعة من بلادهم، وهكذا أخذت تلك البلاد الفسيحة التي احتلتها هذه القبائل تتقلص مع الأيام، وأخذت دول أخرى تتكون في هذه البقع المترامية لتوانيا وبولونيا ودوقية موسكو وسواها من البلدان السلافية، وشرع الخزر يهاجرون من ديارهم بعد تلك الأحداث[1].

(١) بيتي، إسرائيل لعبتها أمريكا، مصدر سبق ذكره، ص ١٧ – ١٨.

خريطـة منقولة عن دائرة المعـارف اليهودية تبين التوزيـع الديني في أوروبا عام ٩٠٠ ميلادية وفي وسطها تظهر إمبراطورية الخزر اليهودية، التي دامت ثلاثة قرون، وكانت كبرى دول اليهود في التاريخ ولا تمت بأية صلة عرقية إلى دولتي إسرائيل ويهوذا التاريخيتين على أرض فلسطين.

ثانيًا الحروب الخزرية البيزنطية:

لقد تباينت الأخبار عن علاقات الإمبراطورية الخرزية والإمبراطورية البيزنطية؛ إذ كانت تلك العلاقات خاضعة للظروف التي تعيشها كل منهما، لاسيما أن المصالح الموجودة في المنطقة تدفع أحيانًا إلى علاقات ودية، وإلى علاقات سيئة أحيانًا أخرى، فنرى أن (يوسف) ملك الخزر يذكر في رسالته للوزير حسداي بن شبروط -كما مرَّ بنا في الفصل السابق- أنه يتبجح في مركزه ومركز إمبراطوريته بين جيرانه، ذاكرًا أموالًا وهدايا ثمينة كان يرسلها الأباطرة البيزنطيون في بعض المواسم، ولو أنه كان يشير إليها في رسالته بأنها كانت تأتيه من باب استرضائه أو خوفًا من بطشه، إلا أنها بحسب ما تذكره الوثائق التاريخية أنها مجرد تبادل ودي كان يحصل بين ملوك الدول المجاورة[1].

يقول آرثر كيستلر: «ولعب الخزر دورًا مهمًا في السياسة الدولية، وحَرص حكام الإمبراطورية الرومانية الشرقية على

(١) دنلوب، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٤، كما يذكر دنلوب أن هناك أخبارًا تتحدث عن حرب قام بها الخزر ضد البيزنطيين تحت قيادة بنيامين جد يوسف، وحرب ثانية تحت قيادة هارون والد يوسف، وقد قيل: إن الإمبراطور البيزنطي قد حرض اللان ضد الخزر، وفي ظل يوسف نفسه قام الخزر بمهاجمة الأراضي البيزنطية. المصدر نفسه، ص ١٢٢.

التحالف معهم طول المدة الممتدة من القرن السابع إلى القرن العاشر الميلاديين، وكثيرًا ما اشترك الخزر في الحروب ضد أعداء الإمبراطورية البيزنطية التي تدين لهم في كثير من الفضل في بقائها صامدة أمام الهجمات المتتالية التي شنها عليهم الفرس من جهة والعرب من جهة أخرى، ووقف الخزر سدًّا منيعًا حال دون زحف العرب نحو القوقاز أيام فتوحات الخلافة الأموية، ويقول بعض المؤرخين: لولا وجود الخزر في الإقليم الشمالي لطوق العرب بيزنطة»[1]، وقد ذكر الإمبراطور البيزنطي المؤرخ قسطنطين بورفير وجينيتوس ٩١٣ – ٩٥٩م أن الرسائل الموجهة من الروم إلى إمبراطور الخزر كانت تحمل خاتمًا ذهبيًّا قيمته ثلاثة صولدات، بينما الرسائل التي كانت توجه إلى غيره كانت تحمل خاتمًا ذهبيًّا قيمته صولدان، ويعلق المؤرخ بيوري على ذلك فيقول: «وفي المدة التي نعالجها يحتمل أن خاقان الخزر لم يكن في نظر السياسة الخارجية للإمبراطورية البيزنطية أقل شأنًا من شارل العظيم وخلفائه»[2].

كما أن زواج الإمبراطور البيزنطي (قسطنطين الخامس) بأميرة خرزية ٧٣٢م والتي أصبح ابنها (ليو الرابع) الملقب ليو الخزري إمبراطورًا سنة ٧٧٥م له أثره في تاريخ العلاقات

(١) كيستلر، مصدر سبق ذكره، ص ٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢١.

بين الإمبراطوريتين، وتذكر المصادر قبل هذه الأحداث إرسال سفارة من الإمبراطور البيزنطي تيودوسيوس الثاني سنة ٤٤٨م إلى الخزر كان من بين أعضائها الدبلوماسي بريسكس، وكان هذا يأتي الإمبراطور بوصف دقيق للمفاوضات الدبلوماسية وما يحدث في بلاط الخزر من أمور تخص الإمبراطورية البيزنطية، ويذكر بريسكس أن الإمبراطور البيزنطي حاول أن يكسب إلى جانبه شعب الخزر لكنه لم يفلح في ذلك[١].

من جانب آخر نرى أن الإمبراطور البيزنطي جيستينيان عندما عُزل من عرشه ونكِّلَ به من قبل منافسيه لجأ إلى خاقان الخزر الذي رحب به وعقد معه حلفًا وزوجه شقيقته وأحسن ضيافته، ومنها أعدَّ جستنيان العدة لغزو بيزنطة واستعادة عرشه بمساعدة ملوك الخزر؛ إلا أن إمبراطور بيزنطة الجديد تبيريس قدم رشوة سخية لملك الخزر دفعه فيها إلى الغدر بضيفه؛ إلا أن جستنيان علمَ بما دُبِّر له فهرب على ظهر سفينة عبر البحر الأسود إلى مصب نهر الدانوب واستطاع أن يعقد حلفًا جديدًا مع قبيلة بلغارية قوية زودته بخمسة عشر ألف فار استطاع أن يعيد بهم عرشه المسلوب، ثم إن جستنيان أراد أن ينتقم ممن أساؤوا له في منفاه فأرسل جيشًا دمر مدينة

(١) المصدر نفسه، ص ٣١.

خرسون، وقتل كثيرًا من أبرز أهلها حرقًا وغرقًا، ثم أراد أن يعيد الكرة على المدينة نفسها ولكنه لم يفلح هذه المرة، إذ تصدى له جيش خزري قوي استطاع أن يستغل ضعف معنويات الروم، وأن يقنع قائدهم باردانيس بالانضمام إليهم والعودة إلى محاربة الروم، وفعلًا تم خلع جستينيان وانتخاب باردانيس إمبراطورًا، ولقب بالإمبراطور فيلبكس[1]، وهذه القصة تعطينا مدى البعد الذي كان عليه في أرجاء الإمبراطورية الرومانية الشرقة، فقد كان فيلبكس إمبراطورًا من صنع الخزر، وكانت نهاية حكم جيستنيان على يد شقيق زوجته خاقان الخزر وفي هذا يقول دنلوب: «لا بد وأن هناك مبالغة في القول بأن خاقان الخزر كان في هذه المرحلة قادرًا فعلًا أن يقدم حاكمًا جديدًا للإمبرطورية الرومية»[2].

من ناحية أخرى فإن الإمبراطورية البيزنطية كانت ترغب في السلام مع الخزر، يدفعها إلى ذلك موقعها الجغرافي بين الدينبر والقوقاز، واستمرت هذه السياسة من قبل الروم طوال ثلاثة قرون، إلا أن التغيرات السياسية التي طرأت على الساحة الروسية والتقارب الروسي البيزنطي ودخول الروس حكامًا وشعوبًا في الديانة المسيحية، أدى كل هذا إلى تغيير واضح في

(١) وليام، لانجر، مصدر سبق ذكره، ص ٤٨٣.
(٢) دنلوب، نقلًا عن المصدر نفسه، ص ٣٩.

العلاقات الخزرية الروسية؛ لا سيما عندما بدأ النحول يدب في جسد المملكة الخزرية، وفقدان الخزر لأطراف عديدة من المملكة كانت لها الأهمية في وارداتها المالية المتمثلة في دفع الضرائب والرسوم الجمركية، كما أن للسلاجقة دورًا كبيرًا في إضعاف إمبراطور الخزر.

ثالثًا: التحالف البيزنطي الروسي ضد الخزر

قبل أن نتحدث عن الدور الذي أداه التحالف الروسي البيزنطي لابد أن نذكر طبيعة العلاقات الروسية البيزنطية.

لقد تناوبت العلاقات البيزنطية الروسية بين حروب وغزوات ومعاهدات صداقة وسلم؛ ففي عام ٨٦٠م أوشك الروس على الاستيلاء على القسطنطينية مستغلين حرب الإمبراطور (ميخائيل الثالث) مع العرب، فقد هاجم الروس بأسطول ضخم مكون من مئتي سفينة بعد دخوله الفوسفور، وتعرض للمدن والضواحي القائمة على شاطئيه، ونهب ما فيها واحتل جزيرة الأمراء، إلا أن البطريك (فوتياس) استطاع أن يجمع الناس حوله ويعمل على تقهقر وإرجاع الروس، وفي سنة ٩٤١م هاجم الأمير الروسي أيجور البيزنطيين بأسطول ضخم قام رجاله بأسر عدد من الناس، حيث قتل بعضهم وجعلوا من بعضهم الآخر أهدافًا لسهامهم، واعتقلوا آخرين وقيدوهم ودقوا المسامير في رؤوسهم،

كما أشعلوا النيران في كثير من الكنائس والأديرة، لكن الأسطول البيزنطي استطاع أن يهزمهم في النهاية بأساليب متتالية لم يألفها الروس من قبل؛ إذ هاجم أسطولهم البحري بنيران كانت تتدفق من أنابيب في مقدمة السفن، مما جعل الروس يلقون بأنفسهم إلى البحر خلاصًا من هذه النيران[1].

لكننا نرى أن بعد كل معركة أو غزوة بين الطرفين تحدث معاهدة صلح، فبعد حرب ٨٦٠م حصلت معاهدة صلح في عام ٨٦١م، وبعد حرب عام ٩٤١م، وحرب ٩٤٤م حدثت معاهدة سنة ٩٤٥ م، كما حدثت حرب ٩٦٩–٩٧٩ م، نرى أن معاهدة صلح حدثت في عام ٩٧١م، أما سبب عدم استقامة هذه المعاهدات فإن المؤرخين لا يجدون ما يبررون نقض هذه المعاهدات؛ بل إن العلاقات تصل إلى أبعد من معاهدات الصلح؛ فبعد سنوات قليلة من حرب ٨٦٠م نرى أن الروس أرسلوا سفراء إلى القسطنطينية، وبمثل ذلك فإن أقاليم روسية كثيرة قد وصلتها بعثات دبلوماسية من البيزنطيين، وكان الهدف من ذلك كله إصلاح ذات البين بين الطرفين وإطلاق الأسرى. وإن طمع الروم في جلب حكام الروس وشعوبهم إلى اعتناق المسيحية كان دافعًا قويًّا يدفع الروم إلى هذه المعاهدات، وقد تطورت

(١) توينبي، نقلًا عن كيستلر، مصدر سبق ذكره، ص ١١٠.

العلاقات السليمة بين الطرفين إلى أن حدث تجنيد سبع مئة بحار أسكندفاني في الأسطول البيزنطي، وذلك عام ٩٠٢م، ثم حدث تطور في العلاقات وهو تزويد الإمبراطور البيزنطي بالجنود الروس عند الطلب، وفعلاً كان هناك أيام الإمبراطور قسطنطين أي في منتصف القرن العاشر أساطيل روسية تجوب البوسفور تحمل على ظهروها أعدادًا كبيرة من الجند يلبون طلبات الحماية للبيزنطيين[1]، كما ازدهرت التجارة بين الطرفين، وصار للحملات التبشيرية البيزنطية الحرية والتبشير في الأقاليم الروسية، كما أن معاهدة قد أُبرمت بين الإمبراطور البيزنطي ليو وحاكم كييف أولج، وأقسم فيها الطرفان على احترام بنودها، وهو دخول الأميرة (أولغا) أرملة الأمير أيجور المسيحية، فتغيرت العلاقة نحو الأفضل، وأصبحت الهدايا والوفود تتبادل بين الطرفين.

لكن ابن الأميرة أولغا (سفياتوسلاف) ارتد إلى الوثنية، ورفض التزامات أمه مع الروم، وجمع حشدًا كبيرًا من الجند وهاجم البيزنطيين سنة ٩٨٨م، وعلى إثر ذلك تنازل البيزنطيون عن ميناء خرسون للروس كمبادرة حسن نية للسلام، وكانت حملة سفياتوسلاف كغيرها من الحملات تعقبها معاهدات الصلح والسلام.

---

(١) كيستلر، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٧ – ١٠٨.

لكن الذي حدث أخيرًا يمكننا أن نسميه انتصارًا دبلوماسيًّا للبيزنطيين عندما تزوج فلاديمير الحاكم الروسي من الأميرة البيزنطية (آنا) واعتناقه المسيحية، وجعل الكنيسة الروسية تابعة لنفوذ بطريك القسطنطينية، وولد هذا الحدث تحالفًا روسيًّا بيزنطيًّا نتجت عنه حملة عسكرية قام بها التحالف الجديد عام ١٠١٦م ضد مملكة الخزر، اشتملت الحملة على أسطول بيزنطي يعاونه جيش من الروس، استطاعا أن يهزموا الخزر ويبددوا جيوشهم، كما يذكر المؤرخ البيزنطي (سيد رينوس) الغزوة التي اشترك فيها الروس والبيزنطيون ضد الخزر والتي فقدت على أثرها خازاريا قوتها وعظمتها بين دول المنطقة وغاب ذكرها[١]، وأصبحت الأقاليم المجاورة للقوتين المتحالفتين خاضعة لهيمنة الروم والروس وتدفع لهم الضرائب وأتاوات، وصارت الأقاليم السلافية والمدن الواقعة على نهر الدنيبر تابعة للروس، وكذلك الأقاليم الممتدة إلى أدنى نهر الفولغا وحول بحر قزوين، وبذلك تختفي إمبراطورية أدت دورًا سياسيًّا وعسكريًّا مهمًّا في قرون عدة من دون أن تترك أثرًا من آثار تلك الأدوار يمكن أن تعيد على أطلاله قوام الإمبراطورية مرة ثانية[٢].

---

(١) الشمالي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥ – ٣٠.

(٢) كيستلر، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٨، ودنلوب، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢٥ – ٣٣٥.

رابعًا: الغزو المغولي للخزر

«نشأ المغول في هضبة منغوليا شمالي صحراء جوبي، وهي أراضٍ واسعة تتقدم المياه في بعض جهاتها وتكون حاجزًا منيعًا بين الأقاليم الصينية الحارة وبين الأراضي الباردة في سيبيريا، وقد جعلت الظروف الجغرافية من هذا الإقليم جدبًا، حيث تمتنع الرياح الدافئة عن هذا الإقليم بفعل الجبال المحيطة به، وفي الشتاء يصير المناخ شديد البرودة، فنتج عن ذلك ندرة الزراعة في غالبية تلك الأراضي، وهذا ما دفع السكان إلى الحياة الرعوية والجري وراء الرزق، وصارت حياتهم حياة التنقل وعدم الاستقرار، وعفت نفوسهم عن الزراعة؛ ولذلك فحياتهم المفضلة في الجبال طالما وُجد فيها العشب، فإذا انعدم العشب هجروا الجبال، ولكنهم لم يألفوا معنى الحضارة، وكثيرًا ما لجؤوا إلى التنافس والمشاحنة على الأراضي العشبية، لكن ذلك لم يمنع تكاتف قبائل المغول التي امتازت حياتها بالخشونة والعنف، وامتد طموحها نحو السيطرة على ما في يد الصينيين المجاورين لهم في الجنوب، وإزاء تلك الظروف اتجه الصينيون إلى بناء السور العظيم لوقف غارات المغول»[1].

---

(١) السيد، محمود (دكتور)، التتار والمغول، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، مصر، ٢٠٠١ م ص ٣٩.

ولم يظهر نفوذ قبائل المغول إلا بعد أن استطاع (جنكيز خان)[1] أن يجمع شمل قبائل قومه التي كانت تقطن شرق آسيا، وبأساليبه الذكية تربع على عرش المغول، واتخذ مدينة (قره قورم) عاصمة لدولته، ثم راح يُهذب قبائل التتر المجاورة لدولته في جيش قد أعده لذلك يصل تعداده إلى عشرة آلاف مقاتل، ولم يكن خطر لجنكيز خان أن يهدد جيرانه من قبائل التتر وحسب، بل أصبح يهدد أطراف الدولة الإسلامية في غرب آسيا.

كما أن حروبًا كثيرة قامت بين المغول وجيرانهم الخوارزميين، وقد تقارب الطرفان بعد عقد معاهدة صداقة وعلاقات تجارية تخللتها الوفود والهدايا المتبادلة؛ إلا أن حادثة (قتل الوفد المغولي)[2] من الخوارزميين أدى إلى تدهور العلاقة،

---

(١) كان يُعرف باسم تيموجين، أي الصلب المتين، تعلم في صباه إجادة الصيد والسباق والمصارعة وشظف العيش، وتفوق على أقرانه برجاحة العقل والمهارة، وامتاز في رسم الخطط وتدبير الأمور والانفراد بفكرة خطيرة خلاصتها بأن الحياة للقوي وحده لا للضعيف، وأصبحت هذه نظرية يختص بها، توفي والده الذي كان شيخ القبيلة نتيجة سم دسه له أحد أعدائه، مما دفع بأفراد القبيلة أن ينفضوا عن تيموجين وعائلته، وانتخبوا زعيمًا آخر عليهم، حيث قال أحدهم في الاجتماع: «لا حاجة للقوم إلى امرأة ضعيفة وأطفال مساكين». وكان هذا القول الشرارة الأولى التي أشعلت جذوة النشاط عند تيموجين، فجمع أنصاره وتمكن من جمع قبائل المغول تحت زعامته، ولقب جنكيز خان؛ أي (أعظم الحكام) سنة (٦٠٣ هـ - ١٢٠٦م)، راجع: المصدر نفسه، ص ٥ - ٦٠، وحطيط، أحمد (دكتور) حروب المغول، دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٤، ص ٤٠ - ٤٥.

(٢) أرسل المغول وفدًا إلى الخوارزميّين يتكون من عدد كبير من المفاوضين لأجل حل بعض الخلافات، إلا أن وشاية بهم قد وصلت إلى السلطان علاء الدين اتهمتهم =

وعزم جنكيز خان على محاربة الخوارزميين والانتقام منهم، وفعلاً تم ذلك في عام ٦١٥هـ - ١٢١٨م، إذ استولى جنكيز خان على الأراضي الواقعة بين نهري جيحون وسيحون، وكذلك جزر بحر قزوين وأذربيجان وجورجيا وبلاد ما وراء النهر، ثم استولى على بخارى وسمرقند، ليحول دون وصول إمدادات الخوارزميين إلى المدن المحاصرة شرق نهر جيحون، ولم تكن تلك الحملات التي كان يقوم بها المغول والتي كانت تطول هذه الأقاليم المذكورة حملات مخططًا لها مسبقًا، إنما كانت حملات مطاردة لجيوش السلطان علاء الدين خوارزم وملاحقته من إقليم إلى إقليم، ومن مدينة إلى أخرى، وكانت جيوش المغول تقوم بتجنيد أهالي تلك المدن الواقعة تحت سيطرتهم وتسويقهم للقتال قصرًا مع جيوش المغول، وبذلك أصبحت لدى المغول أعداد كبيرة جدًا من المقاتلين يصعب على الآخرين ردها والسيطرة عليها.

وقد طالت تلك الجيوش المغولية الدولة الخزرية، كما طالت غيرها من الممالك والأقاليم، لاسيما وأن الخزر قد فقدوا قوتهم أمام الروس سنة (٩٦٥م)، ولو أنهم ظلوا وقتًا ليس قليلاً يحاولون إعادة ما ذهب من هيبتهم خلال القرن الثالث عشر، محتفظين بحدود أضيق ببعض الاستقلال، ومتمسكين

= بالتجسس، وتقدير قوة السكان لغرض الإغارة واحتلال البلاد، فأقدم السلطان علاء الدين على قتلهم جميعًا، وإرسال خبرهم إلى جنكيزخان. راجع: حطيط مصدر سبق، ذكره ص ٤٣.

بيهوديتهم وممارسات طقوسها، وفي ذلك يقول (بارون): «وبوجه عـام ثابرت مملكة الخـزر المصغرة على البقـاء، ودافعت دفاعًا فعالًا تقريبًا ضد جميع أعدائها حتى منتصف القرن الثالث عشر حـين سقطت فريسة لغـارات المغول العاصفة التـي شنها جنكيز خـان، وجدير بالذكر أنها قاومت مقاومـة عنيفة إلى أن استسلم جميـع جيرانهـا، وامتصت حشـود (القبيلة الذهبيـة – Golden Horde) جزءًا كبـيرًا من سكانها، إلا أن الخزر كانوا قد أرسلوا قبل الزحف المغولي فروعًا لهم من سلالتهم في البلاد السلافية التي لم تخضع للمغول وهذا مما ساعدهم في النهاية على إقامة تجمعات يهودية ومراكز كبيرة في شرق أوروبا»[1].

ويقـول جون بيتـي: «وهكذا أخـذت تلك البـلاد الفسيحة تتقلص مـع الأيـام، وأخـذت دول أخـرى تتكون في هـذه البقع المترامية كلتوانيـا وبولونيا ودوقيـة موسكو وسواهـا من البلاد السلافية، وشرع الخزر يهاجرون من بلادهم، الأمر الذي عجل هجرتهم الغزو المغولي تحـت قيادة (جنكيز خان) الذي سيطر علـى البلاد بأكملها، وانتشر اليهود الخـزر في نواح متعددة من غربي روسيا والبلدان الأوروبية الأخرى»[2].

---

(١) ويلـز، هـ. ج، معالم تاريخ الإنسانية، ج٣، تعريـب: عبدالعزيز توفيق جاويد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٠، ص ٥٩٨ – ٥٩٩.

(٢) جون بيتي، مصدر سبق ذكره، ص ١٧-١٨.

ويقول كيستلر: «وكان لنشوء إمبراطورية جديدة بدوية امتدت من المجر إلى الصين أثر كبير على اختفاء مملكة الخزر لاسيما وهي في أيامها الأخيرة؛ نتيجة ما طرأ عليها من عوامل الانحلال، وذلك بعد ظهور التحالف الروسي البيزنطي، وانضمام روسيا إلى العالم المسيحي، وفقدان دولة الخزر أهم الأقاليم التي كانت خاضعة لها وتمدها بواردات الضرائب والجمارك وتحمي تخومها من الغارات والحروب الخارجية»[1].

كذلك يذكر لنا عبدالرحمن شاكر في كتابه دولة الخزر الجديدة: «إلا أن المغول وحسبما يصفه المؤرخون اليهود كانوا متسامحين مع أبناء مملكة الخزر؛ إذ لم يتعرضوا لعقائدهم الدينية، مما ساعد هؤلاء اليهود على أن يحافظوا على معتقداتهم الدينية من خلال ممارسة الشعائر والتجمعات الطائفية بين الشعوب المسيحية»[2].

ويؤكد نصر شمالي في قوله: «ويمكننا القول إن اجتياح جحافل المغول لأواسط آسيا وغربها الذي سبب انهيار تشكلات سياسية واجتماعية بدائية أمثال يهود الخزر كان له الأثر الكبير في تدفق أبناء هذه التشكيلات المنهارة إلى الدول المجاورة وإحداث مستجدات تمثلت بالتجمعات العرقية والسياسية والدينية.

(١) كيستلر، مصدر سبق ذكره، ص ١٣١.

(٢) عبد الرحمن شاكر، مصدر سبق ذكره، ص ٤١.

وهذا ما حـدث فعلًا في دول أوروبـا عندما انهارت مملكة الخـزر اليهودية؛ إذ هاجر اليهود الخـزر بعد تدمير تجمعاتهم علـى أيدي المغول نحو مناطق الانتعاش الاقتصادي الجديد في أوروبا الوسطى والشمالية، وتربعوا على طريق المدن التجارية في بولونيا وشرق ألمانيا وروسيا ودول البلطيق وفنلندة»[1].

(١) نصر شمالي، مصدر سبق ذكره، ص ١٨.